

قراءة في مخطوطة (رسالة في الطب)

للعامة محمد بن عمر بحرق ٨٦٩ - ٩٣٠ هـ

أ: أحمد صالح رابضة
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - جامعة عدن

ترجمة العلامة محمد بن عمر بحرق ٨٦٩ - ٩٣٠ هـ

تميزت هذه الشخصية العظامية في اليمن وحضرموت بخاصة ، بشوخ أعماله وحيوده العلمية ، والفكرية ، والسياسية ، ويعتقد أنه لم يدع جهداً في الحسب والتقسيم ، وفي التعليل والاستباط إلا بلده في علوم الأولين ، في القرن العاشر الهجري ، ولعل مقبالات الأمام - إذا ما حقت أعماله العلمية تحقيقاً صحيحاً - تلقوا على جهود واتجاهات أخرى احتفظها ومهد سبلها ، فهو العالم ، الشاعر ، والناثر والأديب ، والفقيه ، والصوفي ، والمفسر ، والوعوي ، والطبيب والرياضي ، والقائد العسكري والإداري والسياسي الماهر ، والساحر الذي يتقن السحر ، وليس هذا نوعاً من الغلو لا يجب أن نتورط فيه ، فهو حقيقةً نتمسكها فيما تركه الرجل من نتاج علمي متميز ، بالنفاس إلى جهود أقرانه من العلماء والفقهاء المتجهدين في القرن العاشر الهجري في حضرموت ،

ولا ريب أننا لن نغف عن هذه المواهب والقدرات والجهود كلها في هذه الدراسة ، ولكننا إلى الله نرفع في التماس المعونة والتوفيق في التوفيق على رسالته التي بين أيدينا ، والتي تسمى نارة (رسالة في الطب) ونارة أخرى (رسالة في أصول الطب) ونارة ثالثة (أر حوزة في الطب وشرحها) ، وقد عثر لنا أن نصرف إلى درسها وتقديمها وعرضها وإن كنا لا نحيط بدقائق محتوياتها كما ينبغي أن يكون .

لقد انحصر تناول في الغالب الأعم على درسها كجزء من التراث الخطي الطبي في اليمن ، حضرموت ، وكذا تسمت أنا سوف نعتبر عنى مخطوطة مماثلة كالتالي عثرنا عليها في مكتبة الأحقاف في تريم ، ولم نحققنا الخط في ذلك ، فالر مائة التي وقفنا عليها ، ليس لها نسخ مماثلة في المكتبات الخطية الأخرى ، على الأرجح ، بحيث تساعد الباحث الحق على تحقيقها تحقيقاً صحيحاً ، ولم يكن بد من الاعتراف بأن تحقيق التراث الطبي الخطي يتطلب جهوداً مضاعفة لتفوق الجهود للبلد في تحقيق التراث الخطي بعمامة ، ناهيك عن التراث الطبي اليمني الذي يحتاج إلى مزيد من إحالة النظر ، وإمعان الفكر ، وقبل هذا ودك يتطلب قدرًا من التحقيق والتدقيق ، فمعظم التراث الخطي في اليمن لم يتحقق التحقيق المنهجي للشود .

نشأة بحرق:

ولد العلامة محمد عمر بحرق في مئونة التاريخية العربية في حضرموت في الخامس عشر من شعبان عام ٨٦٩ هـ (١) وترعرع في بيئة علمية لما حظ غير قليل في تكوين الرجل ، وقد عرف عن أهالي حضرموت ميلهم إلى اقتناء المخطوطات حيث احتوت حزان يوقم عنى العدد الوفير منها في شئ مسامي المنوم .. وانتشرت لرباسات العربة في أثناء شين من هذه المدن ، واكتملت للساجد والكتاب بربادها من الشباب التواق إلى الدرر والحصيل ، ولاشك أن مباحثنا قد نال حفظاً من ذلك في ميعه صباه ، وهو الذي يملك الرغبة الجامحة ، والدكاء الحاد ، والقسوة الوقادة ، وهي القاعدة التي وقف عليها علم الرجل بعدد كغيره من عنماء زمانه ، فحفظ القرآن ، ومعظم الحاوي ، ومنظومة الرواوي والأصول ، وألفية النحو بكاملها (٢) وتمتد على عدد من فقهائه حضرموت ، ومهيم الفقيه لصاخ محمد بن أحمد باحرق لم يخرط في سلك السياسة وحاض غمارها ، فلا مناص من أن يصير رجلاً من رجالاتها في عهد بلز بسوطوري الذي نال لجمه في عهده ، وأدناه منه فتولى قضاء مدينة السحر وبعض الأعمال الحكومية في السلطنة ، وفساد الخيمة العسكرية التي جهزها بسوطوري على الجيرة في رمضان عام ٩٥١ هـ (٣) ، كما عينه والياً على بعض المناطق في حضرموت .

انتقاله إلى عدن

وكانت عدن وقتذاك ملجأ وملافاً للعلماء القادمين من ربوع اليمن ، والوالدين إليها من بلدان أخرى ، إما لأخذ من علمائها وفقهاها ، وإما للتجارة والتوطن فيها ، أمم تجازون عن الحضر على تداول الأزمان كما يقول الربيهي (٤) وكانت تحكم في هذه المرحلة من قبل حكام آل

طاهر (٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) وكان العلامة بحرق واحداً من هؤلاء الوافدين على عدن ، حيث تتلمذ على يد العلامة عبد الله بن أحمد باحرقمة ، والعلامة محمد بن أحمد سافضل في أصول الفقه والعربية ، وأخذ عن حسين بن عبد الرحمن الأهدل (٥) وصاحب السد أبنا بكر بن عبد الله العبادوس وحظي برعاية الدولة الطاهرية التي أسبغت عليه حاح عطفها في عهد مر حان الظافري وحين عهد عامر بن عبد الوهاب ، الذين أسبغا عليه النعم وأخر لالة العظايا ، ثم اشتغل في أواخر عهده في عدن بالتدريس والإفتاء والتأليف ، وارتحل إلى زبيد وصاهر حمزة الناشري على ابنته وأولدها (٦) ، وأخذ الحديث والتفسير والبحر عن العلامة محمد بن أبي بكر الصايغ (٧) وشخص إلى الحجاز ، وسمع على الخافظ السخاوي ، وترجم له في الضوء اللامع (٨)

وليس من المنتظر - فيما نحب - أن يبقى هذا الرجل الطموح على حال واحدة ، فعمل اضطراب الأوضاع في عدن في عهد مر حان ، وعامر ، قد دفعه إلى الرحيل إلى الهند ، أو أن ثمة أسباباً خفية أو عامضة لم نغف عنها ، جعلته يؤثر الرحيل إلى الهند على البقاء في اليمن ، فرحل إلى الهند ، واتصل بر حالات دولة الدكن وأعمالها .

ويظن العالم المورخ بافقيه للتوق ١٠٠١ هـ - ١٥٩٢ م برواية تدل على أنه كان على علم بالسحر وفنونه إذا أمكن التعبير ، ويعتبر ذلك من كراماته فقد حضر مجلس بعض وزراء الهند ، وكان في ذلك المجلس رجل من السحرة فيسما هم كذلك إذ ارتفع ذلك الساحر وقعد في الهواء فقال : فوقع عدي من ذلك الساحر ، واستعنت بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أومأت إليه بفرده من حسباتي ، فما زالت تصره إلى أن رجعت إلى مكانه (٩)

ومهما يكن من شئ ، فإن هذه الظاهرة ، هي جزء لا يتجزأ من العلوم القديمة التي تعلمها ، والتي تقع في نطاق التداوي والتطبيق القديم ، مع ما في الرواية من حسنة والفعال .

نماحات العلمية

وعلى الجملة ، فقد أجمع المورجون والمباحثون على أنه كان من العلماء الراسخين والألمة المتبحرين ، اشتغل بالعلوم ، وتفنن في الشطوق منها والمفهوم ، ويميز في الثنور والمنطوم ، وصنف في جميع العلوم كالحديث ، والتصوف ، والنحو والصرف ، والحساب ، والطب ، والفلك ، والأدب ، وبلغ عدد مصنفاته ثلاثين مصنفاً طبع بعضها دون أن تسمه يد التحقيق على الأرجح (١٠) ومن أبرز نماحاته العلمية : أر حوزة في علم الحساب وشرحها والكافية في أصول علم الطب ، ورسالة في علم البقاة ، والبهجة في تقويم النهجة ، وأر حوزة في الطب وشرحها ، وهي التي نحن بصدد درسها وعرضها (١١) .

نظمه ونثره

للعامة بحرق نغفات شسرية أقسرت إلى الأصبالة منها إلى العسنة والأفعال . أوردنا المورخ بافقيه في ترجمته له ، إذ طالما بماضج تسم عن اغناده بقدراته الشعرية ، بحيث يضع نفسه في مصاف الشعراء الكبار ، وقد تناول معظم الألوان الشعرية مدحاً وفجراً وعزلاً وهجاءاً ، ولاشك أننا لسنا في حاجة إلى أن نعرض لهذه الأغوان ، بيد أنه من الأهمية بمكان عرض بعض الأمثلة الدالة على جزالة شعره ، وحسن سكه وهو القائل :

تسماً بأيات البديع وما حسوى
لو كنت بفتراً بنظم تصبى
من كل قافية يروق ماسكها
وتعيد محبان الفصاحة باتسلا
وترى لجيد بها بيسداً قيسه
حصراً وينقلب الفرزدق أخطلا
وعلى جبرير تجر مظرف تيهنا
وهللهأ نبيده نسج هللهنا